

العمل كفينومينولوجيا كاشفة عن ماهية الإنسان من منظور كارل ماركس

بن شريف بوعلام.

-جامعة الجزائر-2-

قسم الفلسفة

Résumé :

Dans cet article on essaie de dévoiler une vérité très importante, qui concerne le projet philosophique- économique marxien et qui touche le noyau de la pensée de Karl Marx, laquelle nous apparait dans la majorité de ces ouvrages : l'idéologie Allemande, Manuscrit de 1844 économique-philosophique, Grundrisse ou fondements de la critique de l'économie politique, contribution à la critique de l'économie politique, le Capital. Critique de l'économie politique...etc, où Marx base et centre son étude scientifique et critique sur un phénomène qui reflète l'essence humaine, qui est le travail, ou avec la conception marxienne « la praxis » pourvu d'un aspect expressif qui exprime les forces humaines et puis donne la dimension anthropologique et ontologique pour l'homme, c'est à dire, l'aspect qui à travers lui l'homme prouve lui-même entant que être humain. Mais le problème qui se pose, l'Homme peut-il transformer son état primitif pour qu'il sera réaliser et objectiver dans l'histoire ? Outre, peut-il transformer le monde extérieur pour qu'il dépasse la sphère des images fantasmagorique ?

الكلمات المفتاحية:

الإنسان؛ مفهوم العمل؛ ماهية الإنسان؛ الممارسة؛ التغيير؛ أنسنة التاريخ.

يتعين علينا بادئ ذي بدء، أن نشير إلى فكرة رئيسية، ونحن بصدد دراسة العلاقة التي تربط الإنسان بالمجتمع الذي يعيش فيه، وهي أن الإنسان أولاً وقبل كل شيء كائن بيولوجي يسعى في المقام الأول يومياً لإشباع

حاجاته وغرائزه التي تملها عليه الحتمية البيولوجية. هذه الأخيرة هي بمثابة العامل الرئيسي الذي يدفع الإنسان لتحريك أعضاء جسمه الخاملة، بما فيها اليدين، الأصابع، والرجلين، من جهة، دون إغفال العقل الذي هو الجوهر القائد لكل هذه الحركات، قصد تحقيق طموحاته، ومن ثم تحقيق المصالحة مع المجتمع الذي يعيش فيه، ذلك لأن الإنسان الذي يعيش في مجتمع معين "وفي مرحلة معينة من التطور التاريخي يحتاج إلى الأكل والملبس والمأوى، وبعض الوسائل لتربية أطفاله، وللتسلية، وأشياء عديدة أخرى. وبعض هذه الحاجات بيولوجي، لا بد من إشباعها للمحافظة على الحياة (...) كالخبز والفحم والأقلام والكتب، وملابس الرقص والأرصفة والأعمدة الكهربائية، والسيارات والمدارس التي تسمى بالسلع فما السلع، إذن إلا وسائل مادية لإشباع الحاجات الإنسانية. وهذه الوسائل مستمدة من الطبيعة (...) عن طريق استخراجها وتحضيرها، أو عن طريق تغيير خصائصها الطبيعية والكيميائية، والحياتية، أو عن طريق نقلها عبر المكان والمحافظة عليها عبر الزمان"⁽¹⁾ أي بفضل العمل والممارسة التي تعبر عن ذاتية الإنسان وتكشف عن ماهيتها، من خلال أعمال الإنسان لطاقاته الذهنية والجسمية في العالم الخارجي، بغية إنجاح عملية إنتاج الحاجات التي ستكيفه مع قساوة الحتمية الطبيعية المتمثلة في البرودة أو البركان أو الزلازل الذي يصف غضبها، بحيث تضمن له المصالحة مع العالم الخارجي، كون أن الحياة هي صراع من أجل المصالحة بين الذات (الإنسان) والموضوع (العالم الخارجي)، وهذا الصراع يعكس "واقع لا جدال فيه هو الإنسان، الجنس البشري الذي يصارع الطبيعة ويسيطر عليها خلال صيرورة خاصة لا

يستطيع أي كانت نتائج هذا البحث، أن ينفصل عنها. الصراع نفسه علاقة ورايط، إنه أوثق الروابط جميعا. لقد ضاعف الجنس البشري، بنشاطه وعمله الخلاق، علاقاته مع الطبيعة بدل أن يقطعها ويسلك طريق تطور روحاني بحث. علاقة الإنسان بالطبيعة علاقة جدلية، إنها وحدة يزداد عمقها في صراع يتجدد ويشدد أكثر فأكثر، يمكن حل هذا الصراع، لمصلحة الإنسان، في كل انتصار وكل اختراع تقني وكل اكتشاف يتم في حقل المعرفة وفي كل توسع يطرأ على هذا القطاع من الطبيعة الذي يسيطر عليه الإنسان⁽²⁾، وذلك باختراع الأدوات التي سيحقق بواسطتها سيطرته عليها، ومن ثم الكشف عن أسرارها وتحويلها من قوة مسيطرة إلى ثروات تخدم مصلحته. واختراع الإنسان لهذه الوسائل يدل – حسب ماركس- على أنه "حيوان مخترع وصانع للأدوات (atoulmaking animal)"⁽³⁾ بحيث يجعل منها الوسيلة التي تنقله من عالمه البدائي الذي كان جاهل في ظله، يعاني من قساوة الطبيعة الخارجية، إلى عالم حضاري، إنساني متطور، يعمل فيه بحكم اختراعه لهذه الأدوات والوسائل على "ضبط تحديدات طبيعة العلاقة التي تربطه بمحيطه الطبيعي، ليتحول الإنسان من موقف الضعف والسلبية الذي جعله تحت رحمة الطبيعة الغنية التي تملي عليه قراراتها للتنفيذ، إلى موقف القوة الإجرائي الذي يفرض على الطبيعة الاستجابة لطلباته، فتتحول من كونها طاغية إلى كونها طائعة إرادة الإنسان الذي يرسم أبعادها على النحو المراد، كما أن الإنسان بمقتضى فعالية العمل، يقدر آثار الطبيعة بشكل مسبق تبعا لمقاصده ولراميه (...). وعلى أساس هذا الاعتبار، يغدو العمل وسيلة أداتية ومنهجية عملية لكشف النقاب عن حقيقة الواقع، فتتيسر عملية فهمه وإدراك ثناياه، وذلك يؤدي بشكل مستقيم إلى تحكم

الإنسان في ظروفه الطبيعية والاجتماعية ليتم على إثر ذلك توجيهها تبعاً للإرادة العامة⁽⁴⁾.

يتبين لنا من خلال هذا المنطلق، أن العلاقة الجدلية القائمة بين الإنسان والطبيعة الخارجية، هي التي تكون الإنسان، وتبني وتطور قواه الذهنية من جهة، وبنيتة الجسمية من جهة أخرى، إذ يتم كل هذا عن طريق العمل الكاشف عن ذاتيته الداخلية التي تتموضع وتنكشف في العالم الخارجي، وتعبّر عن عالم الإنسان الداخلي. إذ يمكن القول في ذات الاتجاه، أن الإنسان إذا ساهم في الكشف عن ذاتيته الإنسانية بواسطة العمل، فإنه في الحقيقة يباشر في بناء الحضارة، بحيث يؤنسن التاريخ ويتحول بعد ذلك إلى كائن إنساني، يتميز عن باقي الحيوانات الغير الناطقة، بتموضع عقله في الواقع، وبحكم انكشاف أفكاره في سياق تاريخي معين فإنه بهذا المعنى يصنع التاريخ. وعلى هذا الأساس، يمكن الحكم أن التاريخ خاصية إنسانية، دون أي منازع.

في الحقيقة، ليس بمقدور الإنسان أن يحقق هذا التحول، و"لا يتطور إلا بناء على الغير المتميز عن ذاته والكامن في ذاته (...). إنه لا يمارس نشاطه ولا يتقدم إلا إذا أوجد داخل الطبيعة عالماً إنسانياً، إنه عالم الأشياء والمنتجات اليدوية ونتاج الفكر البشري. هذه المنتجات ليست الكائن البشري ولكنها "أمواله" و "أدواته" فقط. إنه علة وجودها وغايتها، بدونها لا قيمة لها لأنها نتاج نشاطه والعكس بالعكس إذ لا قيمة للإنسان بدون هذه الأشياء التي تحيط به وتقوم على خدمته. وخلال تطوره يعبر الإنسان عن ذاته ويخلق ذاته الذي هو الأشياء الكبيرة جداً التي صنعها"⁽⁵⁾، إنه بهذا المعنى بمثابة الصانع الذي يعبر ويكشف عن أفكاره

في صورة المصنوع الذي يكشف بدوره أيضا عن طبيعة أفكار الصانع وعن ذاتيه الإنسانية.

على أساس هذا المنطلق، إن إنتاج هذه الأدوات التي تساعد الإنسان في صراعه ضد الطبيعة الخارجية، والتي هي بنت هذا الصراع، أو وليدة هذه العلاقة الجدلية الكامنة بين الذات والموضوع، يعكس الاجتهاد الذهني والعضلي، الذي يمارسه الإنسان من خلال استهلاكه لطاقتها بغية تكييف الطبيعة مع متطلبات حاجاته، ومن ثم يضمن استمراره في الحياة. فبفضل العمل الموجه بالعقل، سينجح الإنسان في تحويل الطبيعة من حالتها البدائية، إذ ينقلها إلى مادة صالحة لإشباع حياته البيولوجية، وإلى أدوات يوظفها في حياته اليومية، قصد تغيير المحيط الذي يحيط به، فيحقق طموحاته، وأمله في التسيير قدما إلى الأمام، في مقابل الحيوان الغير العاقل الذي يعيش من أجل غرائزه حياة روتينية (vie routinière). إن الإنسان يعبر بالعمل عن ذاته الإنسانية ويؤكد لها ويكشف عنها من خلال جهده المبذول، وفي نفس الوقت نجده يوجه ويؤطر بواسطة العقل المدرك مختلف نشاطاته، على عكس الحيوان الذي تسييره غرائزه. وبالفعل هذا هو المعنى الذي نستشفه من خلال كلام ما نصح ماركس فيما يلي:

"والإنسان إذ يخلق عالما موضوعيا بنشاطه العملي، وإذ يصوغ الطبيعة الغير العضوية، يؤكد ذاته ككائن نوعي. صحيح أن الحيوانات أيضا تنتج، فهي تبني لنفسها أعشاشا ومساكن مثل النحل والقندس والنمل... إلخ. لكن الحيوان لا ينتج إلا ما يحتاجه مباشرة لنفسه ولصغاره، إنه ينتج إنتاجا أحادي الجانب في حين ينتج الإنسان، إنتاجا كليا، إنه لا ينتج إلا تحت ضغط الحاجة الجسدية المباشرة في حين ينتج

الإنسان حتى حين يكون متحررا من الحاجة الجسدية، ولا ينتج حقا إلا متحررا منها. والحيوان لا ينتج إلا نفسه في حين يعيد الإنسان إنتاج الطبيعة بأسرها، وينتمي ناتج الحيوان مباشرة لجسمه المادي، في حين يعرف الإنسان كيف ينتج وفقا لمعايير كل نوع، ويعرف كيف يطبق في كل مكان على الموضوع المعيار الكامن فيه. ومن هنا فإن الإنسان يشكل الأشياء كذلك وفقا لقوانين الجمال"⁽⁶⁾.

يتبين لنا من خلال هذا النص أن ماركس يرى بأن الحيوان الغير العاقل كالقندس والنمل والنجل...إلخ، ينشط فقط في إطار غريزته، ومن ثم فإن حركاته روتينية فقط. وأن هذا الحيوان الذي يضيق نشاطه فيما هو غريزي، "شأنه شأن الإنسان قادر على الإنتاج-عشا، بيتا، إلخ، لكنه لا ينتج إلا ما يحتاجه مباشرة لنفسه أو لصغاره. إنه في ظل هيمنة الحاجات الفيزيولوجية المباشرة، (إنه خال من الذات التي تنكشف في الواقع بفضل العمل). إنه لا ينتج إلا نفسه-بمعنى أنه لا يستطيع أن ينتج إلا وفق معيار واحتياج نوعه الذي يمت إليه، أما الإنسان فهو على العكس (...)، يكون نشاطه نشاطا حرا. وعندما ينتج الإنسان، فإنه يستطيع أن ينتج في غيبة الحاجات الفيزيائية، والإنسان في إنتاجه ليس مقيدا بمعيار واحتياج نوعه وحده، إنه لا يكتفي بإنتاج نفسه، بل يعيد إنتاج الطبيعة كلها. إنه يستطيع أن يخلق وفق معيار كل الأنواع ويعرف كيف يشكل كل شيء وفق المعيار الباطني لهذا الشيء، ومن ثم يخلق وفق قوانين الجمال"⁽⁷⁾.

من هنا يمكن القول إن الإنسان يتميز - حسب ماكس-بكونه يعي نشاطه، والهدف من نشاطه العملي، فالبناء قبل الشروع في رفع أي بناء يستند مسبقا على تصميم منهجي صارم ودقيق يقوم بتخطيطه المهندس

المعماري، وفي نفس الوقت يعي الهدف من وظيفته التي يؤديها، والمتمثل في خلق مأوى يقيه من برودة فصل الشتاء مثلا، بينما يقوم نشاط الحيوان على الجانب الغريزي، إذ تعيد النحلة بناء خلاياها بشمع العسل بدافع غريزي، هو وضع العسل بداخلها. يقول كارل ماركس في هذا السياق ما يلي:

" يؤدي العنكبوت عمليات مماثلة ومشابهة لتلك التي يؤديها الغزال في مجال الحياكة، والنحلة كذلك، تبدو من خلال بناء خلاياها المصنوعة بشمع العسل، وكأنها تتميز بمهارة ودقة وحنكة مذهلة من تلك التي يتمتع بها المهندس المعماري، لكن ما يميز عمل هذا الأخير (الإنسان) عن نشاط النحلة الخيرة، هو أنه فكر في بناء الخلية قبل أن يمارس عملية البناء في الواقع. بتعبير آخر، إن الخلية كانت بادئ ذي بدء موجودة في ذهن العامل كفكرة، لهذا فهو لا يهدف من خلال عمله لتغيير شكل المادة الكامنة في الطبيعة في حالتها البدائية، فقط، بل يحقق غايته في الواقع نظرا لكونه مزود بالوعي الذي يحدد نمط نشاطه كقانون ينبغي أن يوجه على إثره إرادته"⁽⁸⁾.

في الحقيقة، يتعين علينا أن نشير في ذات الاتجاه إلى فكرة مهمة، وهي أن الغرض من إعطاء هذه الأمثلة التي نستشف من خلالها هذا الفرق الشاسع الذي يميز عمل الإنسان عن نشاط الحيوان الروتيني والغريزي، يتلخص في القول أن العمل هو خاصية إنسانية، إنه كما يرى ماركس، نشاط إنساني خالص، "على أساس أن الكائنات البشرية تنفرد به من دون سواها بناء على أن نشاط الحيوانات قد يظهر للبداهة الأولى في صورة توحى بالمهارة والدقة والحنكة المذهلة، كما هي الحال في نشاط النحل ونشاط العنكبوت كلاب الماء (les castors) وغيرهم، مع ذلك يبقى

نشاط الحيوان، في كل الأحوال نشاطا غريزيا، ومن حيث هو كذلك، لا يرقى بأية حال من الأحوال إلى نشاط الإنسان بدلالة العمل⁽⁹⁾.

كما تدل أيضا هذه الأمثلة المقدمة، والتي تميز عمل الإنسان من حركات الحيوان الغير العاقل، على أن الكائن البشري يقوم بمجموعة من نشاطات منظمة، وموجهة من طرف العمل المنظم والمصنف، تسمى بالعمل، الذي له أثران: أثر على الطبيعة لأنه يؤنسها، وأثر على الإنسان لأنه يجعل منه إنسانا طبيعيا، فقوى الإنسان تنمو بواسطته، وإنسانيته تصير موضوعية بسببه لأنه يسجل آثارها على الأشياء تسجيلا يمكننا أن نشاهده عمليا، إنه هو الذي يخلقه حقيقة إذ هو الذي يجعل منه كائنا موضوعيا، وهو الذي ينشئ العلاقات الاجتماعية بينه وبين غيره، ويحمل أمثاله إلى الاعتراف به (...). فالعمل يكون الإنسان حقا لأنه هو الذي يبرهن على صحة نظرياته، وهو الذي يفتح أمامه أبواب التقدم والرقى⁽¹⁰⁾.

نستشف من خلال هذا المنظور الماركسي لمفهوم العمل، أنه بفضل نشاط الكائن البشري تنشأ العلاقات أو الروابط الاجتماعية التي تجمع الناس في إطار المجتمع الذي يعيشون فيه، فيتعاونون ويتضامنون فيما بينهم. بتعبير آخر، إن هذه العلاقات تنشأ أثناء الفعل والممارس، وبالتالي، فهي ليست بأفكار وتصورات مثالية مفارقة ومتعالية عن الواقع المعيش، وأن مسرح التاريخ يشهد على ذلك، أي على أن العمل يحدد طبيعة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع، كالتعاون، والتضامن التي بفضلها يتجاوز الصعاب ويخفف من حدة الصراع والتوتر القائم بين الذات والموضوع.

والثابت أن كارل ماركس يصوب نقده في هذا السياق ضد الفيلسوف الفرنسي (بيير، جوزيف برودون) *-(1865-1809) (Pierre, Joseph Proudhon) الذي طرح مشاريع طوباوية لتحويل المجتمع الرأسمالي تحويلا اقتصاديا سليما إلى نظام عادل، يقوم على المساواة بين الناس، ويحترم كذلك المبادئ الأخلاقية المثالية التي تجمع الكائنات البشرية بوصفهم يشتركون في صفة الإنسانية، بحيث عكست نظريته في العدالة فكرة تأسيس منظومة أخلاقية تهدف إلى ضرورة التساوي بين الأفراد في المجتمع. ولكن، طبيعة مبادئه الأخلاقية التي تستند إلى الآراء المثالية جعلت ماركس يسميه ب: الفيلسوف البورجوازي الصغير، بحكم أنه يعتنق المبادئ المثالية الهيجلية. ومما لاشك فيه، أننا نعثر على هذا النقد في كتابه المرسوم ب: بؤس الفلسفة، الذي يعتبر كرد على فلسفة البؤس لبرودون، حيث يقول ما يلي:

"إن برودون- وهو يمسك الأشياء بيده رأسا على عقب كفيلسوف- لا يرى في العلاقات العادية إلا تجسيدا لهذه المبادئ ولهذه اللوائح التي كانت نائمة- وهكذا يخبرنا يردون الفيلسوف أن هذه اللوائح كانت نائمة في "صدر الإنسانية غير الشخصية". إن برودون الاقتصادي يفهم جيدا أن الناس يصنعون الثياب من الحرير أو القطن بعلاقات نسبية في الإنتاج. ولكن ما لا نفهمه هو أن هذه العلاقات الاجتماعية المحدودة هي نتاج الناس كما أن الحرير هو نتاج الناس إلخ"⁽¹¹⁾. فعلى عكس تصور برودون، يرى ماركس، أن الناس يحددون طبيعة العلاقات الاجتماعية على أساس العمل المنتج، بدليل أنها تكون بعد نشوء هامتطابقة تماما مع إنتاجهم

المادي. وبالفعل، هذا هو المعنى الذي نستشفه من كلام ماركس الآتي نصه:

"إن نفس الناس الذين يؤسسون علاقاتهم الاجتماعية لتطابق إنتاجهم المادي، تراهم ينتجون أيضا المبادئ والأفكار واللوائح، لكي تطابق علاقاتهم الاجتماعية. وهكذا فإن هذه الأفكار وهذه اللوائح ليست أبدية كالعلاقات التي تعبر عنها، إنها إنتاج تاريخي وفترة انتقال"⁽¹²⁾.

إن ما يريد توضيحه ماركس من خلال نصه هذا، هو أن يميّز اللثام ويكشف طبيعة نسق برودون الفلسفي، فبين أنه مثالي في أصله، بدليل أن برودون يعطي الأولوية لما هو مثالي، على ما هو مادي، عملي وتطبيقي، فيحدد بذلك طبيعة العلاقات التي تربط الأفراد فيما بينهم. والحق، إن الاختلاف الكامن في طبيعة المبادئ والقيم الأخلاقية عبر مختلف الحقب التاريخية التي تمتد من ذلك الماضي البعيد، إلى الحاضر الذي نعيشه اليوم، هو البرهان القاطع على أن الظروف الاجتماعية، الاقتصادية، هي التي تحدد طبيعة المبادئ الأخلاقية، وجل العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الناس، دون أي منازع.

ولكن، إذا كان الإنسان يحدد من خلال نشاطه طبيعة العلاقات الاجتماعية (التعاون، التضامن...)، فإنه، إن جاز القول، يخلق نوع من المصالحة مع الآخر، وبالتالي إنه حسب ماركس-يثبت ويؤكد قيمة العمل وأثره في الحياة الإنسانية. وإذا كان العمل هو حجر الزاوية الذي تقوم عليه حياة الإنسان، فكيف يمكن تدعيم هذه المسألة من المنظور الماركسي؟ بتعبير آخر، على أي أساس أقعد ماركس تصوره حول مفهوم العمل؟

للإجابة عن هذه الإشكالية، ينبغي علينا أن نعرض موقف ماركس إزاء المنظومة الرأسمالية الكلاسيكية في شكلها الليبرالي. فماركس النقد، الصارم، ينزع النقاب عن التناقضات التي يحملها النظام الرأسمالي في طبيعته، والتي تتلخص أهمها في: تناقض العمل بين تحقيق الذات الإنسانية والاعترا ب، أو بين العمل من حيث هو مبدأ إنساني من جهة، واستغلال لا إنساني من جهة أخرى. والغريب في الأمر - حسب ماركس- هو أن الاقتصاديون الكلاسيكيون حصروا قيمة العمل فيما هو اقتصادي، فأكدوا أن العمل هو أصل ومنبع الثروة. فهذا هو الفيلسوف وعالم الاقتصاد الأسكتلندي. (آدم سميث) **-(1790-1723)، (Adam, Smith)، يطرح هذه القضية في كتابه المرسوم، ب: "بحث في أصل وطبيعة ثروة الأمم"، بحيث وقف موقف معارض ضد أنصار المدرسة الميركانتيلية ***، الذين يرون في الذهب والفضة، أصل ثروة الأمم، فسميث، يخالف هذه التعاليم ويؤكد بأن المعادن في حد ذاتها تستخرج وتنقل من باطن الأرض بالعمل والممارسة، وبالفعل، هذا ما نعثر عليه في كلام ما نصه، فيما يلي:

" فهذا المال أو هذه السلع (...) يحتويان على قيمة معينة من العمل التي نبادل بها ما يفترض فيه عند المبادلة أن يحتوي على قيمة كمية مماثلة، العمل كان الثمن الأول، مال الإتياع الذي كان يذل للحصول على كل الأشياء، لم يكن الذهب ولا الفضة، بل العمل، هو ما تم اتياع كل ثروات العالم في الأصل (...). الثروة كما يقول السيد (توماس) هوبس، قوة. (...) وتكون الثروة أكبر أو أصغر، بالقياس إلى مدى

هذه القوة تحديداً، أو إلى كمية عمل الناس الذي تمكنه ثروته من إتباعه واستحقاقه⁽¹³⁾.

يتبين لنا من خلال هذا النص، أن آدم سميث يريد تغيير أفكارا سادت قبله، وهي " المنظومة الميركانتيلية التي كانت تقيس الثروة الوطنية بحسب ما تحتويه خزائن الدولة من ذهب وفضة، موضحاً أن هذا الصرح الميركانتيلي بني على خطأ، ولذا أتى بنتائج عكسية عندما صرح بأن ثروة الأمم وأن القيمة يحددها العمل وذلك من أجل التجارة والتبادل اللذان يؤديان إلى زيادة الازدهار على نحو يشابه بكل تأكيد لما ينتج من الزراعة والصناعة. إن ثروة الأمة ليست مقدار ما تحتويه خزائنها من ذهب وفضة، إنها هي إجمال الإنتاج والتجارة، أي ما ندعوه بنتاج العمل المحلي⁽¹⁴⁾.

يضيف آدم سميث شارحاً أهمية العمل في ذات الاتجاه ما يلي: "فالعمل كما يبدو وبوضوح، هو المقياس الشامل، والدقيق الأوحده للقيمة، أو المعيار الوحيد الذي يمكننا بواسطته مقارنة قيم مختلف السلع في كل الأزمنة والأمكنة. فمن المسلم به أننا لا نستطيع تقدير القيمة الحقيقية لمختلف السلع من قرن إلى قرن بكميات الفضة التي كانت تبذل ثمنالها. ولا نستطيع تقديرها من سنة إلى سنة بكميات الحنطة. أما بكميات العمل ففي وسعنا أن نقدره بأقصى درجات الدقة من قرن إلى قرن ومن سنة إلى سنة"⁽¹⁵⁾.

في الحقيقة إن مفهوم العمل من منظور الاقتصاديون الكلاسيكيون يضيق فيما هو اقتصادي، دون أن يتسع إلى الأفق

الإنساني، وإن الفكرة الرئيسية السائدة لديهم تتلخص في أن " العمل هو حجر الزاوية ومحرك العملية الإنتاجية التي تثمر ما يسمى بالقيم التبادلية، وليست الأرض"⁽¹⁶⁾ و ما فيها من الخيرات المتنوعة الممتعة والضرورية لحياة الإنسان.

من هنا نصل إلى القول أن هذه الأفكار التي سادت في القرن 18م، والتي أسس لها هؤلاء الاقتصاديون الكلاسيكيون أمثال آدم سميث و(دافيدريكاردو)****- (1823-1772)، (David Ricardo)، شكلت مادة نقد كارل ماركس، بحيث يرى هذا الأخير أنها تنقص من قيمة العمل التي تمتد إلى أكثر مما هو اقتصادي حتى تصل إلى التعبير عن الذات الإنسانية. وبالتالي فإنها -حسب ماركس- تتضمن النقص بحكم أنهم يرون في العمل صورة البضاعة التي يتم تبادلها بين دول العالم في إطار ما هو تجاري، غافلين أن قيمة العمل تمتد إلى أبعد من ذلك، فهو بادئ ذي بدء السلاح الذي يطالب من خلاله الإنسان بناء شخصيته السوية، وتجاوز مختلف الأمراض والأزمات النفسية. كما أنه ليس بإمكانه " أن يعبر عما بداخله من أفكار وعواطف، إلا في حالة واحدة، هي إنتاج شيء معين بعد العمل والممارسة، وهذا الشيء المنتج يعبر عن ذاتية الإنسان.(...) أكثر من ذلك، يمثل تأكيد الإنسان لوجوده الفردي من جهة، والواسطة التي تقربه من الآخر لهدف تحقيق المصالحة معه، من جهة أخرى، ويعد العمل الوسيلة التي تضمن بقاء الإنسان على قيد الحياة، لأنه بالعمل، يحقق إشباعاً على مستوى حاجاته"⁽¹⁷⁾.

بتعبير آخر، يعد العمل نشاط الإنسان الفعال والخالص، الذي " يثمر إنتاجاً يكشف عن ذاتية صانعه ويعبر عنها تعبيراً، (...) إن العمل

جهد إنساني منتج على نحو يكشف المصنوع، في صورة مشخصة، أبعاد الصانع الذاتية بحيث يكون المصنوع إمتدادا طبيعيا للصانع، كما يظهر المصنوع قدرات ومؤهلات الصانع العقلية والنفسية والجمالية. وببساطة يوضع المصنوع الصانع كاشفا في ذات الوقت عن كل أبعاده المتعددة الدالة⁽¹⁸⁾. فمن جهة، تنكشف ذات الفنان في ذلك البعد الجمالي الذي يضفيه في عمله الفني، ومن جهة أخرى، تظهر مختلف القيم الإنسانية حيث تسود العدالة والمساواة والأخوة، ويتم تجاوز شعار الذئبية الذي يقول ب:الإنسان ذئب للإنسان، بعد العمل الثوري الذي تمارسه الطبقة المستغلة والمضطهدة. ويحيا الإنسان بفضل العمل على إنتاج قيم إستعمالية تتخذ صورتها في الأشياء المادية الممتعة والنافعة والضرورية لحياة، مثل: الخبز والمواد الغذائية بصفة عامة. وباختصار شديد، يشغل الإنسان قصد تجاوز مختلف الأزمات التي تعيقه في حياته، بما فيها الأزمات النفسية، والأزمات الاجتماعية والاقتصادية من جهة. ويشغل بغية الاستجابة لنداء حاجاته البيولوجية (كالمأكل والمشرب والملبس والدفع...)، بإنتاج القيم الاستعمالية، من جهة أخرى. وإن حقق هذا الجانب البيولوجي، فإنه بإمكانه أن يكشف عن ذاتيته الإنسانية في مختلف المجالات الأخرى ذات الأبعاد الآتية: الاجتماعي والاقتصادي والفني، والنفسي.

ومما لا شك فيه، أن ماركس يقصد بالقيم الاستعمالية "النشاط المنتج والمثمر الذي يحدده العامل، إنها تمثل قوته الحيوية المحولة إلى هدف معين، والمعبرة في نفس الوقت عن نفسها في شكل الإنتاج الذي يخلقه العامل أثناء نشاطه"⁽¹⁹⁾، ومن بين البراهين التي يدعم بها ماركس شرحه هذه الفكرة ليثبت صحة مقولته هذه، نعثر عليها في كلامه الآتي:

" ينبغي إذن، تفتيش الطبيعة الخارجية بأكملها، من أجمل استكشاف الأشياء، بغية امتلاكها واستعمالها من جديد، بحيث تحقق فعل التبادل في كل أنحاء العالم، وأن نكشف كل ثروات بلدان العالم، ثم نقوم بإخضاع جل هذه الثمار الطبيعية للبحوث والدراسات العلمية – التجريبية قصد إعادة تصنيعها، ومن ثم تحويلها إلى قيم إستعمالية جديدة (...). إن اجتهادنا من أجل اكتشاف خيرات الطبيعة الخارجية هو الفعل الذي يحقق إشباعا حقيقيا لرغبات الإنسان"⁽²⁰⁾.

يتبن لنا من خلال هذا النص، أن الإنسان كائن فعال في ظل الواقع الذي يعيش فيه، على أساس أنه إن أراد أن يضمن وجوده، يجب عليه أن يكشف ذاته في الواقع، وذلك من خلال الممارسة التي تحول الطبيعة الخارجية. ونظرا لكونه مزود بالعقل والقوة البدنية، فإن هاتين القوتين تساعداه في عملية الكشف عن أسرار الطبيعة الخارجية وفهم ألغازها، باستخراج خيرات الباطنية كالمعادن والمحروقات وغيرها من المواد الخام. وبالفعل، إن العمل من المنظور الماركسي، يحول الثروات إلى قيم استعمالية ممتعة وضرورية للحياة، وتبادلية بإخضاعها لمنطق السوق القائم على البيع والشراء. وعلى هذا الأساس، إن الإنسان يلعب دور مهم في حياته، بحيث يخضع الطبيعة الخارجية لإرادته. يقول ماركس في هذا السياق ما يلي:

"يلعب الإنسان دور مهم أمام قوة الطبيعة الخارجية، إنه يؤدي دور قوة طبيعة أخرى. فالقوى والطاقات التي يتمتع بها جسمه، كالذراعين، والرجلين، والرأس، واليدين، إن أخضعها في فعل الممارسة سيحقق هدفه المتمثل في إضفاء بعد نفعي للمواد الطبيعية، في حياته

اليومية"⁽²¹⁾. بمعنى أن الإنسان الماركسي يمارس إرادته الحرة في الفعل المنتج، إذ يضفي بعده الإنساني فيها، بحيث يقوم بإعادة إنتاجها وتحويلها إلى طبيعة ثانية تخدم حاجاته المتنوعة. وهذه المهمة بلا ريب صفة تخص نوعه.

ومن هذا المنظور الماركسي لمفهوم الإنسان ودوره الفعال في الحياة، تتضح لنا علاقة تأثير وتأثر بين الإنسان والطبيعة الخارجية. فهو يؤثر عليها بنشاطه العملي، وهي تمد له المواد والخيرات التي يشبع بها جوع حاجاته المتعددة. والعلاقة بينهما مرتبطة أشد الارتباط ومن المستحيل الفصل بينهما، لأن الطبيعة الخارجية من المستحيل أن توفر له رغباته إن لم يعمل الكائن البشري على استخراجها، وكأن الطبيعة في ذات السياق هي المادة التي يمارس عليها الإنسان تجاربه، بنشاطه العملي، أي العمل كأداة تربط الكائن البشر بالطبيعة الخارجية، وتكون الوحدة بينهما.

كما يتبين لنا أيضا، أنه في إطار "مسار العمل، ينتج الإنسان أشياء يلبي بها حاجاته: مجموعة من الأشياء التي لا وجود لها ولا معنى إلا الإنسان وبالإنسان، يؤلف "طبيعة ثانية"، عالم تقنية، أي بالمعنى الأوسع عالم ثقافة وحضارة، لا يمنعه ذلك من أن يظل طبيعة، ولكن طبيعة إنسانية، طبيعة أعيد بناؤها وفق خطط إنسانية. (...) والواقع أن الإنسان، إذ يكثر من وسائل تلبية حاجاته، يخلق لنفسه حاجات جديدة، حاجات قال عنها ماركس (في مخطوطات 1844) إنها الثروة الإنسانية الحقة التي يمتلكها الإنسان. فالإنسان يزداد ارتفاعا فوق بهيمته الأولى بقدر ما يخلق لنفسه احتياجات إنسانية حقة، إذ أن هذه الاحتياجات ليست تعبيرا عن مجرد تلك العلاقة المباشرة الوحيدة مع الطبيعة،

علاقة المستوى الحيواني كتسكين الجوع أو رد هجوم، بل هي تضاعف كثيرا من علاقات الإنسان مع العالم فتجعل طوع يديه صورة مباشرة للمعرفة، هي صورة العلم.⁽²²⁾ إن الطبيعة الخارجية، بهذا المعنى، تتحول إلى المادة التي يمارس ويطبق عليها الكائن البشري بحوثه العلمية التجريبية التي تسمح له بكشف ماهيته الإنسانية، وانبجاس ذاته في العالم الخارجي. ضف إلى ذلك، إن نشاط الإنسان، " يحول الطبيعة الخارجية، وفي نفس الوقت، يؤدي ذلك إلى تحويل الإنسان وتطوير ملكاته الخاملة"⁽²³⁾.

جلية إذن حقيقة النشاط الإنساني الذي يظهر وكأنه كفينومينولوجيا كاشفة عن ماهية الإنسان، حيث يتميز الأخير في ذات الاتجاه عن الحيوان الغير الناطق، كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك، فيما يخص فكرة النشاط البشري الواعي والهادف في نفس الوقت. يقول ماركس وهو يصف طبيعة نشاط الإنسان الواعي، وحركات الحيوان المرتبطة بحياته الغريزية ما يلي:

" العمل - نشاط الحياة، الحياة الإنتاجية ذاتها - يبدو للإنسان مجرد وسيلة لإشباع حاجته-الحاجة إلى المحافظة على الوجود الجسدي. غير أن الحياة الإنتاجية هي حياة النوع، إنها حياة تولد حياة، وطابع أي نوع - طابعه كنوع - يحويه طابع نشاط حياته، والنشاط الحر هو طابع حياة الإنسان (...). ويتطابق الحيوان بشكل مباشر مع نشاط حياته، وهو لا يميز نفسه عنه، إنه نشاط حياته. والإنسان يجعل نشاط حياته واعيا (...). فنشاط الحياة الواعي يميز الإنسان بشكل مباشر عن نشاط حياة الحيوان وهو لهذا السبب بالتحديد يعد كائنا نوعيا-أي أن حياته ذاته موضوع له-إلا لأنه كائن نوعي. ولهذا السبب وحده فإن نشاطه حر"⁽²⁴⁾.

يعبر عن ذاته الداخلية، أي عن طاقاته الذهنية بعد أن تتغلغل في التاريخ وتتموضع في صورة الأشياء المؤسسة والمنظمة أو المنتجة التي تعبر إن جاز القول، عن تحقيق الإنسان "ذاته في الواقع المعيش حيث يطور حينئذ قدراته ويتحول إلى كائن إنساني. ومن هنا فإن الغاية من العمل لا تتلخص في تحقيق هدف مادي، إقتصادي، بل العكس، إن الهدف من نشاط الإنسان هو تعبير الفرد عن طاقاته"⁽²⁵⁾ في إنجاز أو صنع مصنوع معين يستفيد منه في حياته، كنقل المادة العامة من حالتها الطبيعية الجامدة إلى حالة جديدة حية، نافعة وممتعة. وكل هذا يدخل في إطار ما يسمى بتموضع الذات الإنسانية وتجليها في الطبيعة بالممارسة، بحيث يتم إحياء الطبيعة من جديد. وبالفعل، هذا ما نعرّض عليه في كلام ما نصه ماركس، فيما يلي: "هكذا فإن الإنسان في صياغته للعالم الموضوعي يؤكد نفسه حقاً، للمرة الأولى، باعتباره كائناً نوعياً. فهذا الإنتاج هو حياته النشطة كنوع، وخلال هذا الإنتاج وبسببه تبدو الطبيعة باعتبارها عمله وواقعه. ومن هنا فإن موضوع العمل هو تموضع حياة الإنسان كنوع لأنه يضاعف نفسه لا فكرياً فحسب، كما يحدث في الوعي، بل كذلك في الفعل، في الواقع، ومن هنا فإنه يتأمل ذاته في عالم خلقه"⁽²⁶⁾ وهذا العالم الجديد سيضفي فيه طابعه الإنساني، بحيث يكشف فيه ماهيته الإنسانية.

من هنا يمكن القول، أن " فكرة تحقيق الإنسان لذاته بالاعتماد على قواه الذهنية والجسمية، مرتبطة في الأساس بالنشاط العملي، وأن الفكرة الرئيسية عند ماركس، في هذا السياق، هي أن العمل والرأسمال لا يمكن حصرهما فيما هو اقتصادي، مادي فقط، بل العكس، إنهما في الحقيقة يعكسان نوع من القيم ذات طبيعة إنسانية أنثروبولوجية مزودة بحكم قيمي منبثق من وضع الإنسان (...). وبهذا المعنى يغدو العمل –

حسب ماركس- وسيلة يعبر بها الإنسان عن ذاته في الحياة.⁽²⁷⁾ فالقيام مثلا، بتحويل الخيط الذي تنتجه دودة القز إلى مادة الحرير، ثم تحويله إلى رداء يقي الإنسان من البرودة في فصل الشتاء، هو برهان قاطع على أن نشاط الإنسان هادف وواعي وحر في آن واحد، يتم من خلاله خلق مواد حية قابلة للاستعمال بين أفراد المجتمع، وللتبادل التجاري بين الدول في كل أنحاء العالم، بعدما كانت خاملة في حالتها البدائية الأولى. وبالفعل، هذا هو المعنى الذي نستشفه من خلال هذا النص الذي يصف فيه ماركس نشاط الإنسان الفعال، والمحول للطبيعة الخارجية إلى قيم مفيدة وممتعة. يقول ماركس في هذا السياق ما يلي: "إن الهدف من العمل الذي يستغرق العامل في أدائه مدة زمنية معينة، هو أن يهب ويمنح الحياة في الأشياء الجامدة في الطبيعة الخارجية، حيث يجعلها حية، موجودة"⁽²⁸⁾، تتمتع بقيم إستعمالية وتبادلية في نفس الوقت.

يقدم ماركس في ذات الاتجاه أمثلة متعددة، يصف من خلالها الدور الذي يلعبه العمل، والمتمثل في تحويل مادة معينة كالقطن والخيط من حالتها الطبيعية البدائية حيث يضفي فيها العامل بعد جمالي يستقطب الإنسان ويحقق له سعادته. كإنتاج بذلة معينة، هي-حسب ماركس- عملية تمر في مسار عملي من تلك المادة الطبيعية البدائية، إلى عملية النسيج، ثم إنتاج السلعة التي ستخضع للبيع والشراء. إذ يظهر العمل من خلال هذا المنظور كنشاط يحافظ على المادة الخام. يقول ماركس في هذا الصدد ما يلي:

" في إطار المراحل التي تشكل مسار العملية الإنتاجية والتي تمر عبرها مادة معينة، يتم استخراج الأشياء الطبيعية من أشكالها المعرضة للتلف، من أجل خلق بضاعة نافعة ومفيدة، كأن نستعمل القطن

ونستخرج منه الخيط، فنحيكه ونشكل منه النسيج، حتى نبلغ تلك المرحلة الأخيرة، التي نخيّط فيها رداء بواسطة هذا النسيج الذي تحصلنا عليه عبر كل هذه المراحل المشكلة للعملية الإنتاجية التي يتلخص الغرض منها في هاتين النقطتين الآتيتين:

1- المحافظة على مادة القطن، بعد أن يتم نقلها من حالتها الطبيعية، إلى حالة جديدة قابلة للاستعمال، أي إنقاذها من تلك الحالة الأولى المعرضة للتلف، وتحويلها إلى قيمة تحقق سعادة الإنسان.

2- أن كل مرحلة تمر عبرها مادة القطن، في مسار عملية الإنتاج، نجدها تتحول إلى شكل قابل للاستعمال، وهو الشكل الأحسن والأفضل للاستهلاك، حتى تصل في مرحلتها الأخيرة إلى اكتساب صورة شكل معين يجعل منها بمثابة الموضوع الموجه مباشرة للاستهلاك، بحيث يستمتع به الإنسان، هذا في الحقيقة هو معنى المحافظة وحماية مادة القطن⁽²⁹⁾.

هكذا يكشف ماركس أن الإنسان يتحقق بالعمل على إعادة إنتاج الطبيعة الخارجية، وأن بالعمل على تحويل الطبيعة لما يخدمه ويتمتع به في حياته اليومية، يتحول الإنسان أيضا من حالته البربرية المتوحشة إلى حالته الحضارية والإنسانية. أما أن يعيش بمعزل عن المجتمع فإنه في ذات الاتجاه يتجرد وتسلب منه قيمه الإنسانية. وبالفعل، هذه هي المسألة الرئيسية التي كانت تشغل بال كارل ماركس منذ مرحلة شبابه وهو طالب في الثانوية، بدليل أنه يعتبر " أن الفاعلية وبلوغ الحقيقة، لم تعد من خصال العقل الميتافيزيقي، الذي لا يتعدى نطاق القضايا والتصورات المجردة، بل العكس، إن من مميزات العقل المنافس، الذي يتزود به العامل، أنه عقل مغير للعالم"⁽³⁰⁾ بمعنى العقل المتموضع في العالم

الخارجي بعيد الممارسة التي تساعد الإنسان في تحديد ملامح بعده الأنطولوجي. وإذا كان ماركس، في هذا السياق يعتبر مفهوم العمل بأنه الوسيلة الوحيدة التي يدافع بواسطتها العامل عن قيمه الإنسانية، فإنه يريد بذلك "أن يتعرف على الإنسان من خلال ممارسته في السياق التاريخي، وكذلك من خلال علاقاته سواء مع الطبيعة أو مع الأفراد الذين يعيش معهم"⁽³¹⁾.

ولكن، هل يدل ذلك على أن الإنسان يعمل من أجل أن يثبت ذاته فقط، أم أنه تجمعته علاقة تضامن ومصالحة بالآخر؟ بدليل أن إنتاج سلعة معينة من طرف الأنا تستهلك من طرف الآخر.

في الحقيقة، إن عملية تحويل المواد الطبيعية إلى قيم استعمالية، ضرورية في حياة الإنسان، هو عامل يجعلنا "حاضرين أمام فكرة مهمة، هي إثبات وتأكيد الإنسان لوجوده، وأمام مصالحة بين مختلف الأجناس البشرية. وبحكم أننا نتصالح من خلال العمل، فإن النشاط البشري يخلق نوع من التضامن بين جميع الناس، كما يكشف عن معنى وقيمة إنسانية لحياة كل فرد من هؤلاء الأفراد، والثابت أن هذه العلاقة التضامنية تتضح عندما:

- أنتج شيء معين من جهة، ويستعمله الآخر من جهة أخرى.
- وعندما أكون مقتنع بأنني حققت الهدف المتمثل في إشباع حاجات الآخر، الذي إستعمل الشيء الذي هو من إنتاجي أنا.
- من هنا أكون قد حققت ماهيتي كإنسان، باختراعي الموضوع الذي استعمله الإنسان الآخر، ومن هنا أيضا، فإن ثمرة نشاطي الذاتي

تتمثل في الاستجابة مباشرة لرغبة الآخر، فتحقق له إشباعا كيا. وتحقيقي لماهية الإنسان يتلخص في أن السلعة التي أنتجها تعبر عن ذاتي من جهة، وقابلة للاستعمال من طرف الآخر في آن واحد، من جهة أخرى. هكذا تنشأ علاقة التضامن بيننا⁽³²⁾، باعتباري منتج والآخر مستهلك. انطلاقا من هذا التصور يمكن القول، " إن الآخر الذي يستعمل السلعة التي أنتجتها، يجعل مني، إن جاز القول، عاملا رئيسيا وضروريا لاستمرار حياته، إنني بهذا المعنى الأنا التي تستكمل حياة الآخر، وإنتاجي لهذه الخيرات، دليل قاطع على حضور الآخر الذي يقتنيها بغية استهلاكها. وهذه العلاقة الكامنة بيننا، تدل أيضا على أنني أشغل بال وفكر المستهلك، كما تدل على الحب الذي يكنه لي، وبحكم أنه يفكر في ذاتي ويحني، فهذا في الأساس هو جوهر علاقة التضامن التي تربط بين الناس، أكثر من ذلك، إنني في الوقت نفسه الذي أكتشف أنني موجود كفكرة في ذات الآخر من جهة، وفي عالمه العاطفي من جهة أخرى، سأؤكد من كون أن ماهيتي مثبتة في كوني إنسان تجمعني علاقة إنسانية بالآخرين. وبكل اختصار، ستعبر في ذات الاتجاه، ومن خلال هذه العلاقة الإنسانية ماهية الإنسان عن نفسها، وماهيتي الاجتماعية، هي أيضا عن ذاتها⁽³³⁾. وبناء على هذه النتيجة المتوصل إليها، فإن "نشاطي الواعي والهادف لإنتاج قيم إستعمائية يستفيد منها الآخر، يوحى بكل موضوعية، إلى كوني مختلفا اختلافا شاسعا عن الحيوان الغير العاقل، ويكشف أيضا عن طبيعة ماهيتي الإنسانية⁽³⁴⁾ وبهذا المعنى، فإن قيمة العمل - حسب ماركس - تمتد من تحقيق الإنسان ذاتية الإنسانية إلى المصالحة مع الآخر والاعتراف به.

أما من زاوية أخرى، فسنقوم بتبيان بعض مزايا وفوائد العمل وقيمتها الإنسانية في القول، إن " العمل وأنماطه وطبيعته تظل هي العامل الحاسم في تشكيل مساراتنا المعيشية وأحوالنا النفسية، إذ تبرز في هذا المجال مجموعة من الخصائص، من بينها ما يلي:

- الدخل المالي: فالأجر أو الدخل المترتب على العمل يمثل المصدر الرئيسي للرزق والمورد الذي تعتمد عليه أكثر الناس لتلبية احتياجاتهم. وإذا لم يتوافر مثل هذا الدخل، فإن هموم الناس حول حياتهم اليومية ستتضاعف وتتفاقم بصورة مطردة.
- مستوى النشاط: فالعمل يمثل أساسا لاكتساب المهارات والقدرات وممارستها، كما أنه يوفر بيئة مهيكلية تستوعب طاقات الفرد. وبغير ذلك تتناقص الفرص لممارسة هذه المهارات والقدرات.
- التنوع: فالعمل يخلق الصلة التي يدخل من خلالها الأفراد والجماعات في سياقات مختلفة عما يكتنف البيئة البيتية والعائلية. ففي بيئة العمل، حتى وإن كانت تتسم بالإملال والإرهاق سيتمتع الناس بأداء أنشطة تختلف في طبيعتها عن المشاغل البيتية.
- التواصل الاجتماعي: إن بيئة العمل كثيرا ما يفتح الفرصة لإقامة الصداقات لمشاركة الآخرين في أنشطة متعددة داخل نطاق العمل وخارجه. وفي غياب هذا الإطار أو العزلة عنه، تتضاءل دائرة الأصدقاء والمعارف، وتتخذ بالتخلص والانحسار.
- الهوية الشخصية: إذ أن طبيعة العمل تسبغ على المرء هوية اجتماعية مستمرة⁽³⁵⁾.

أما فيما يخص الخاصية الأولى، التي هي الدخل المالي، فالإنسان يسترزق ويكسب قوة حياته بالعمل، بعد الحصول على راتب شهري في مقابل الجهد المبذول. ولكن من العيب أن نحصر قيمة العمل في قيمة مالية معينة، فالعمل سواء كان مأجورا أو غير مأجور تنبع منه قيم إنسانية من العيب الإخلال بها، إنها قيم لا تباع في السوق. وذلك نظرا لوجود بعض الأشغال التي يؤديها الإنسان في بيته أو حقله تعود بالفضل والفائدة له، دون أي مقابل مالي (نقدي)، لأن مبالغتنا في القول أن العمل يتبعه دائما راتب أو أجر مالي، هو أمر يحط من قيمة العمل، ويخل بمعناه الحقيقي. والدليل على ذلك، إن الإنسان يقوم في حياته ببعض الأعمال الخيرية التي لا يجني منها أية فائدة مادية، ولهذا فإن العمل سواء كان مأجورا أو غير مأجور "يعني تنفيذ مجموعة من المهمات تتطلب بذل الجهد العقلي/ النفسي أو العضلي، بغرض إنتاج سلع أو خدمات معينة لتلبية الاحتياجات البشرية. أما المهنة أو الوظيفة، فهو العمل الذي يجري أدائه مقابل أجر أو راتب منتظم. ويعتبر العمل هو أساس الاقتصاد في جميع الثقافات والمجتمعات"⁽³⁶⁾.

وفي الأخير نصل إلى القول، إن الإنسان كائن "فاعل وفعال يخلق نفسه بواسطة العمل (...). والعمل هو كل شيء بالنسبة إليه. إنه هو الذي يجعل منه إنسانا، ويحرره، ويفتح الطريق أمامه"⁽³⁷⁾ فالعمل أكثر من كل هذا "رابطة مباشرة وسط أشياء كثيرة بين الإنسان والكون وهواستيلاء الإنسان على الطبيعة وهو في نفس الوقت نموذج أولي للعلاقة بين الناس، إنه إذن موقف أساسي للحقيقة الإنسانية داخل في وحدة مشروعة ويكون موجودا ويسعى في نفس الوقت لإيجاد علاقة مع الطبيعة وعلاقة مع الآخر في الاستناد المتبادل بين بعضها البعض"⁽³⁸⁾.

علاوة على ذلك، إن العمل من خلال المنظور الماركسي، هو جوهر الإنسان، بواسطته يسير هذا الأخير بخطاه نحو الأمام محققا نجاحه وتقدمه على الطبيعة البدائية، إنه المحرك الذي يقود عجالات التاريخ نحو التقدم والرفق. ولكن ألا يشهد التاريخ بأن التقدم الذي حققته الإنسانية يخدم فئة معينة من الناس، وبالتالي فإن كل خطوة نحو التقدم تعكس خطوة أخرى نحو التخلف؟ بتعبير آخر، ألا يمكن وصف العمل بالقول أنها استغلال لا إنساني، بحكم أن العمل مغترب عن طبيعة الأصلية؟

في الحقيقة إن النشاط الاقتصادي (العمل المنتج) هو "النشاط الذي يمنح الإنسان حقه في الحياة، والذي يحوله من عالمه البدائي المتوحش إلى إنسانيته، إنه النشاط الجوهرى والأساسي في حياة الإنسان، ولكن من المستحيل أن نغفل حقيقة مفادها أن هذا الأخير مستغل في إطار نشاطه الاقتصادي"⁽³⁹⁾ أي في ظل النظام الرأسمالي الذي يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والموضوعات المنتجة، في آن واحد، وبالفعل، هنا يمكن جوهر التناقض الذي كشفه ماركس، والمتمثل في تناقض العمل بين تحقيق ماهية الإنسان، والاعترا ب.

-الهوامش:

- 1- أوسكار لانكه، الاقتصاد السياسي، ج1، ترجمة دكتور محمد سليمان حسن، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط3، 1978، ص ص: 45، 46.
- 2- لوفيفر هنري، الماركسية، ترجمة جورج يونس، مؤسسة نوفل للطباعة والنشر، بيروت، 1972، ص ص 35، 36.

- 3- Karl Marx, Le capital, Critique de l'économie politique,
Livre 1, Tome 1, Traduction de Jean Roy, Révisée par
l'auteur, Editions. Sociales, Paris, 1971, P. 182.
- 4- كيثي أحمد، الأساس الأيديولوجي الماركسي في الفلسفة
المعاصرة: (جورج لوكاش نموذجاً)، (أطروحة دكتوراه علوم غير
منشورة)، جامعة الجزائر-2، 2014، ص 119.
- 5- لوفيفر هنري، مرجع سبق ذكره، ص 36.
- 6- كارل ماركس، مخطوطات 1844 الاقتصادية – الفلسفية،
ترجمة محمد مستجير مصطفى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة،
1974، ص ص : 73-74.
- 7- أوجين كامنكا، الأسس الأخلاقية الماركسية، ترجمة وتقديم
مجاهد عبد المنعم مجاهد، الهيئة المصرية العامة للكتاب،
القاهرة، 2011، ص 114.
- 8- Karl Marx, le Capital, critique de l'économie politique,
op.Cit., PP. 180, 181.
- 9- كيثي أحمد، مرجع سبق ذكره ص 118.
- 10- الربيع ميمون، نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية
والمطلقية، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر، دون تاريخ، ص ص
194، 195. (*) (بيير جوزيف برودون) - (1865-1809)، (Pierre-
Joseph Proudhon) : إشتراكي بورجوازي صغير فرنسي، ومنظر
للفوضوية، وضع مذهباً في الاشتراكية البورجوازية الصغيرة
الإصلاحية، مفعماً بالإطلاقية الأخلاقية، يقوم على المساواة بين

- تعاونيات اقتصادية صغيرة مترابطة. من أهم كتبه: فلسفة البؤس أو نسق التناقضات الاجتماعية.
- 11- كارل ماركس، بؤس الفلسفة، ترجمة أندري يازجي، دار اليقظة العربية ودار مكتبة الحياة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، سوريا-لبنان، ط2، 1967، ص112.
- 12- المصدر نفسه، ص ص 112، 114. (**)- (آدم سميث)- (1723-1790)، (Adam, Smith): عالم اقتصاد اسكتلندي درس في جامعة غلاسكو وتابع دراسته في أكسفورد، قضى عشر سنوات في كتابة مؤلفه الشهير الموسوم ب: بحث في طبيعة و أسباب ثروة الأمم، الذي أسس فيه ما يسمى بالرأسمالية الليبرالية .
- (***)- المدرسة الميركانتيلية (Mercantilisme) تنقسم إلى ثلاثة أقسام، 1- النزعة التجارية (Commercialisme): ذات أصل بريطاني و قائمة على فكرة محورية هي أن جوهر الثروة يتمثل في الاستعمار واكتناز الذهب و الفضة. 2- النزعة الكولبيرتية (Colbertisme): وهي ذات أصل فرنسي. 3- النزعة البيليونية (Bullionisme): وهي ذات أصل إسباني مفادها اكتناز الذهب والفضة بطرق ردعية صارمة.
- 13- آدم سميث، بحث في أسباب وطبيعة ثروة الأمم، ج1، ترجمة حسني زينة، مراجعة معهد الدراسات الإستراتيجية، بغداد- أربيل- بيروت، ط1، 2007، ص 46.
- 14- جون جالبرت كينيث، تاريخ الفكر الاقتصادي، الماضي صورة الحاضر، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، مراجعة إسماعيل صبري عبد الله، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2000، ص 21.
- 15- آدم سميث، مرجع سبق ذكره، ص 49.

- 16-Serge Latouche, Épistémologie et économie, essai sur une anthropologieFreudo-marxiste, Editions. Anthropos, Paris, 1973, P. 428.
- 17-Jacques Ellul, la pensée marxiste, La Table RONDE, Paris, 1994, P. 110.
- 18- كيوشي أحمد، مرجع سبق ذكره، ص 22.
- 19-Karl Marx, Grundrisse ou fondements de la critique del'économie politique, traduction de Roger Dangeville, Editions, Anthropos, Paris, 1968, P. 41.
- 20-Ibid., P. 214.
- 21-Karl Marx, Le capital .critique de l'économie politique, op.cit., 180.
- 22- روجيه غارودي، ماركسية القرن العشرين، ترجمة نزيه الحكيم، دار الآداب، بيروت، ط 5، 1983، ص ص 221، 222.
- 23-Karl Marx, le capital, critique de l'économie politique, op.cit., 180.
- 24- كارل ماركس، مخطوطات عام 1844 الاقتصادية- الفلسفة، ص 73. (****)- (دافيد ريكاردو)-(1823-1772)، (David, Ricardo): إقتصادي إنجليزي، من أهم مؤلفاته التي كان يدعو فيها إلى ضرورة توزيع الثروات بكيفية عادلة، قصد تحقيق العدالة الاجتماعية، و بالتالي يتم من خلالها تشييد نظام ديمقراطي على أساس الحرية، نجد مبادئ الاقتصاد السياسي سنة 1817.

- 25-Erich Fromm, la conception de l'homme chez Marx, traduction de l'anglais par: M. Matignon, petite bibliothèque Payot, France, 1966, P. 75.
- 26-كارل ماركس، مخطوطات عام 1844 الاقتصادية-الفلسفية، ص 73.
- 27-Erich from, op.Cit., P. 72, 73.
- 28-Karl Marx, Grundrisse ou fondements de la critique de l'économie politique, op.cit., P. 76.
- 29-Ibid., P. 155.
- 30-Jean Lacroix, Marxisme, existentialisme, personnalise, Présence de l'éternité dans le temps, 1^{ère} édition, P.U.F. Paris, 1950, P. 29.
- 31-Ibid., P. 30.
- 32-Jacques ELLUL, la pensée marxiste, op.cit., PP. 110, 111.
- 33-Ibid., P. 112.
- 34-Ibid.
- 35-أنتوني غندز، علم الاجتماع، ترجمة وتقديم الدكتور فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2005، ص 435، 436.
- 36-المرجع نفسه، ص 437.
- 37-الربيع ميمون، مرجع سبق ذكره، ص ص 196، 197.

38- جان بول سارتر، المادية والثورة. دراسات فلسفية، ترجمة عبد الفتاح الديدي، منشورات دار الآداب، بيروت، ط2، 1966، ص 36.

39-KostasAxilos, Marx penseur de la technique de l'aliénation de l'homme à la conquête du monde, Tome 1, Editions de Minuits, Paris, 1961. P. 100.

- المعاجم والموسوعات :

1- إيغوركون، معجم علم الأخلاق، ترجمة توفيق سلوم، دار التقدم، موسكو، 1984، ص 118.

2- Rodolphe Blaise et al, Dictionnaire d'économie et des sciences sociales, 2^{ème} édition, sous la direction d'Alain BRUNO et Christian ELLEBODE, France, 2010.